الأصدقاء الطيبون

قصة : الدكتور طارق البكري

رسوم : إياد عيساوي

نادى جاسِمٌ بِصَوْتٍ عالٍ شَديد: ما فَعَلْتَهُ يا خَالِدُ لم يَكُنْ صَحيحاً.. لماذا ضَرَبْتَ مَحْمُوداً؟

ردَّ خالدٌ دُونَ اكْتِراثٍ ولا مُبالاة: لا يَهُمُّني مَحْمُودٌ ولاغَيْرُه.

تعجَّب جاسِمٌ وقال: لكِنَّكَ أَسَأْتَ إلينا جَميعاً..

وأنا لا أَقْبَلُ أن تَعْتَدِيَ عَلى مَنْ هُوَ أَصْغَر منْكَ، وتَظُنُّ نَفْسَكَ قَوِيّاً أَمَامَهُ.. هَلْ تَجْرُؤ مثلاً على شَتْم مُهَنَّد والعِرَاك مَعَهُ؟! سَوْفَ يَضْرِبُكَ، فهو أكبرُ سِنّاً، وأقْوَى منْكَ..

تدخَّل سَعْدٌ ليقولُ: وأنا أيضاً لا أُوافِقُكَ يا خَالِدُ، نحنُ لا نَقْبَلُ أن نُشارِكَكَ في الاعْتِداءِ على الآخَرِيْنَ..

لكنَّ خالداً رَكِبَ رَأْسَهُ، وقالَ بعنادٍ: لا يَهُمُّني أيُّ شَيْءٍ.

تَدَخَّلَ فَهْدٌ ليقولَ: لَوْ واصلتَ تَصَرُّفاتِكَ هذه، يَعْني أنَّكَ تَتَخَلَّى عن صَداقَتِنا؛ لأنَّكَ تُحِبُّ المُشَاجَرةَ والعِرَاكَ؟

وقال أحمدُ: أنا لا أَقْبَلُ أن أَعْتَدِيَ على أَحَد، ولا أُحبُّ أَنْ يَعْتَدِيَ عليَّ أَحَدٌ.. وسَوْفَ أَضْرِبُ مَنْ يَضْرِبُني، ولو كانَ أَكْبَرَ مِنِّي سِنًّا؛ لذلكَ لا أَقْبَلُ أَنْ يَعْتَدِيَ أحدٌ على الآخَرِيْنَ ولو كانَ صَدِيْقي..

وردَّ جاسِمٌ بِقوَّة على تَصَرُّفات خالد، قائلاً: اسْمَعْ يا خالِدُ، إمّا أَنْ تَعْتَذِرَ مِنْ مَحْمُودٍ أو لَنْ تَكُونَ صَدِيْقَنَا بَعْدَ الْيوم..

حزنَ خالدٌ لما حدث، وقال مُخاطباً الجميعَ: ولكنَّكُمْ أَصْدِقَائي الآنَ.. ويَجِبُ أن تَقِفُوا مَعِي لا مَعَ مَحْمُودٍ..

وأنا لا أقْبَلُ أن تَعْتَدي عَلى مَنْ هُوَ أَصْغَر منْكَ، وتَظُنُّ نَفْسَكَ قَوِيّاً أَمَامَهُ.. هَلْ تَجْرُؤ مثلاً على شَتْم مُهَنَّد والعِرَاك مَعَهُ؟! سَوْفَ يَضْرِبُكَ، فهو أكبرُ سنّاً، وأقْوَى منْكَ..

تدخَّل سَعْدٌ ليقولُ: وأنا أيضاً لا أُوافِقُكَ يا خَالِدُ، نحنُ لا نَقْبَلُ أَن نُشارِكَكَ في الاعْتِداءِ على الآخَرِيْنَ..

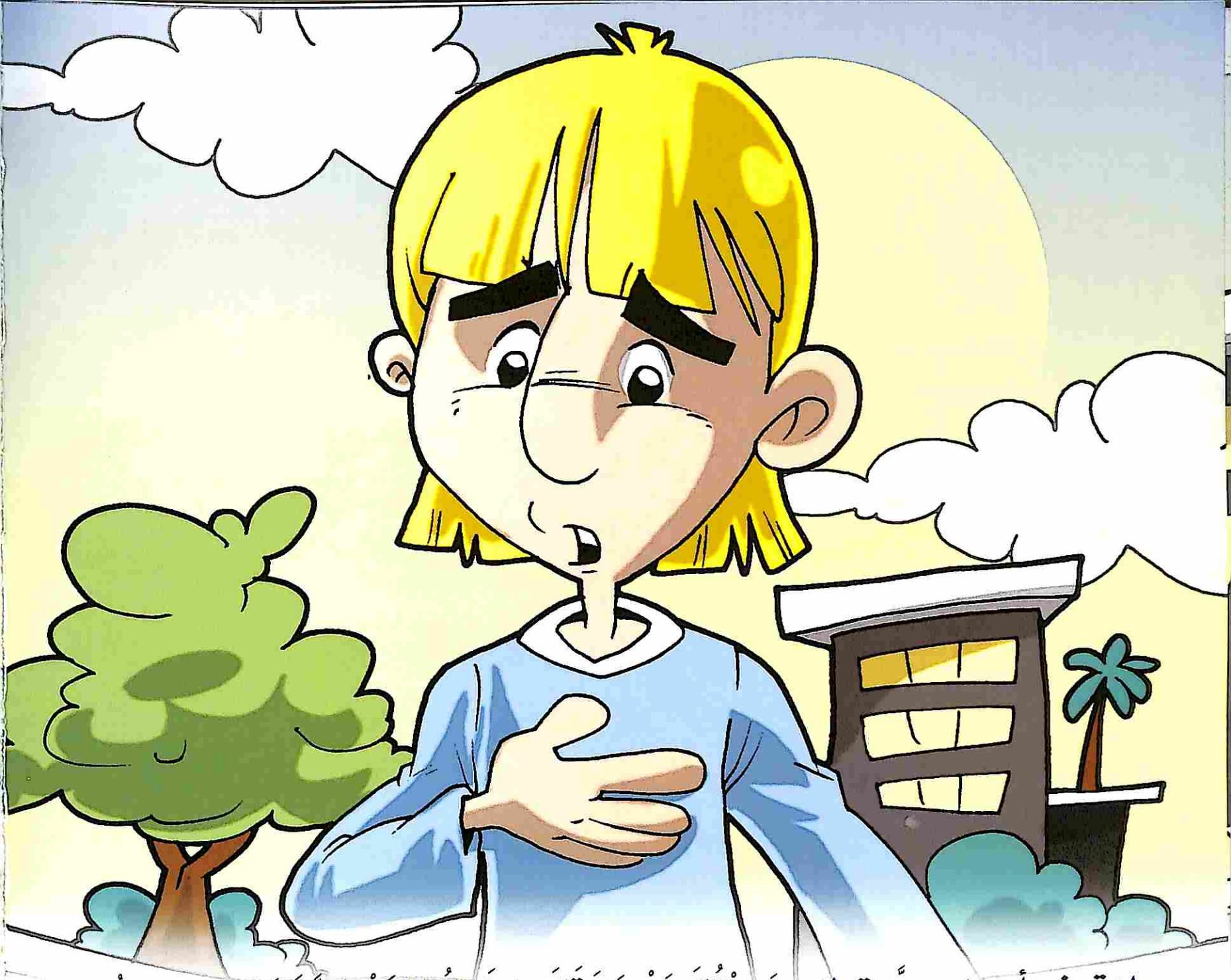

اعترض أحمد، وردَّ بقوله: صَديْقُكَ مَنْ صَدَقَكَ يا خَالدُ لا مَنْ صَدَّقَكَ.. والرَّسولُ الكريمُ يقولُ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالماً أو مَظْلُوماً».. أي: أنْ تَمْنَعَهُ عَنِ الظُّلْمِ، لا أَنْ تَقِفَ مَعَهُ، وتُؤَيِّدهُ في ظُلْمِهِ.

وتَحدَّث فَهْدٌ بلغة الجميع: هل تَرَى يا خالدُ؟! كُلْنا نَرْفُضُ المُشَاجَرَةَ وأنتَ تَقْبَلُها..
وليسَ مَعَكَ حَقٌّ.. أنتَ مَنْ بَاشَرْتَ المُدَافَعَةَ، وقَدْ دَفَعْتَهُ أَرْضاً، ونحنُ كُنَّا نَنْتَظِرُ
لِنَشتَري مِنْ نَدْوة المَدْرَسة... وأنتَ اسْتَقْوَيْتَ على مَحْمُود؛ لأنَّهُ ضَعِيفُ البُنْيَةِ، ولمَّا
دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ ضَرَبْتَهُ، وكِدْتَ أَنْ تُؤْذِيهِ لوْ لَمْ نَمْنَعْكَ..

رَفَعَ سَعْدٌ نَظَّارَتَهُ، وقال: لقد كانَ يُريْدُ أَنْ يُخبرَ المديرَ؛ لكنَّنا رَجَوْنَاهُ أن لا يَفْعَلَ ذلكَ..
وقدْ كانَ لَطيْفاً، وقالَ: إنَّه سَامَحَكَ.. فَكَّر خالدٌ، ثُمّ قالَ: لكنّه شَتَمَني!!
قَالَ جاسِمٌ بِحِدَّةٍ: هل نَسيْتَ أنكَ أَلْقَيْتَهُ أَرْضاً.. وكدْنا أنْ نَدُوسَ عليه بِأَقْدامِنا في
زَحْمَةِ النَّدوَةِ؛ لولا أنْ قامَ بِسُرْعَةٍ..

دَافعَ خَالدٌ عن نَفْسه بقوله: عنْدَمَا قامَ مَحْمُودٌ دَفَعَني إلى الخَلْف؛ ولذَلكَ ضَرَبْتُهُ..
قالَ فَهْدٌ: كانتْ حَركَتُه طَبيْعيَّةً.. هَلْ تُريدُ أن تَدْفَعَهُ وتُسْقطَهُ أَرْضَاً ويَقُولُ لكَ شُكْراً؟!
احتدَّ خالدٌ، لكنَّه تَلَطَّفَ حيْنَ قَالَ: لمْ أَكُنْ أَقْصدُ.. إلا أنَّ فهَداً عَلا صَوْتُه ليَقُولَ: لا
نُصَدِّقُكَ، فأنتَ تَفْعَلُ ذلكَ دَائماً مَعَ مَنْ هُمْ أَضْعَفُ مِنْكَ.. ألمْ تَسْمَعِ الحَدِيْثَ الشَّرِيْفَ:

وقَدْ سَمِعْنَاكَ تَشْتُمُه.. نَحْنُ لا نُحبُّ ذلك أَبداً يا خَالدُ.. الشَّتيْمَةُ ليستْ منْ خُلُق المُسْلِم، ألمَ تَسْمَعِ الحَديْثَ الشَّريْفَ الذي يَقُول: "إنَّ المُسْلمَ لَيْسَ بِشتَّام ولا لعّان"..

علَّق خالدٌ فقالَ: مَعَكَ حَقٌّ.. لكنْ..

استدركَ فَهدٌ ليقُول: لكنْ.. لكنْ.. ما هذا يا خَالدُ؟ إلى مَتَى سَتَبْقَى قَاسِياً على الآخَرِيْنَ؟

قَاطَعَ سَعْدٌ زَمِيْلَهُ بقوله: وأنتَ كَلَّمْتَهُ بِكلام سَيِّئ..

قالَ خالدٌ: واللهِ لستُ أدري..

ولكنَّ سعداً وجَّه سؤالاً لخالد: ومَنْ يَدْري إذاً؟!

وكان أحمدُ قريباً من أصْدقائه، فتدخَّلَ بقوله: كثيرٌ منَ الطُّلابِ في المَدْرَسَةِ أَصْبَحُوا يَبْتَعِدُونَ عنكَ، ولا يُحِبُّونَ التَّكلُّمَ مَعَك؛ ويقولُونَ: إنك سَيِّئُ الطَّبْعِ..

قالَ أحمدُ: أَحدُ أصْدقائنا كان يَلُومُني لأنَّني أَتَكَلَّمُ مَعَكَ.. وقال: إنَّهُ لا يَتَشَرَّفُ بأنْ يَكُونَ عِنْدَهُ صَدِيْقٌ يُؤْذِي الآخَرِيْنِ.. وَطَلَبَ مِنِّي أَن أبْتَعِد عنكَ لأنَّني مُسالِمٌ، ولا أُحِبُّ الشَّتائِمَ، ولا العِرَاكَ، والمُشَاجَرَةَ، بِعَكْسِكَ أنتَ تَماماً..

تَعَجَّب خالدٌ، وقال: هل تتكلَّمُ صدْقاً يا أَحْمَدُ؟ إلى
هذا الحَدِّ أَصْبَحَ الطُّلابُ يَكْرَهُونَنِي؟!
قالَ أحمدُ: نَعَمْ يا خالدُ..
إنَّ إيْذاءَ النَّاس يُكوِّنُ عَنْكَ
فِكْرَةً سيِّئةً، كَما أنَّ اللّه تعالى
لا يَقْبَلُ الأَذيَّةَ..
بَيْنَما أنتَ تَظُنُّ هَذِهِ بُطُولةً..

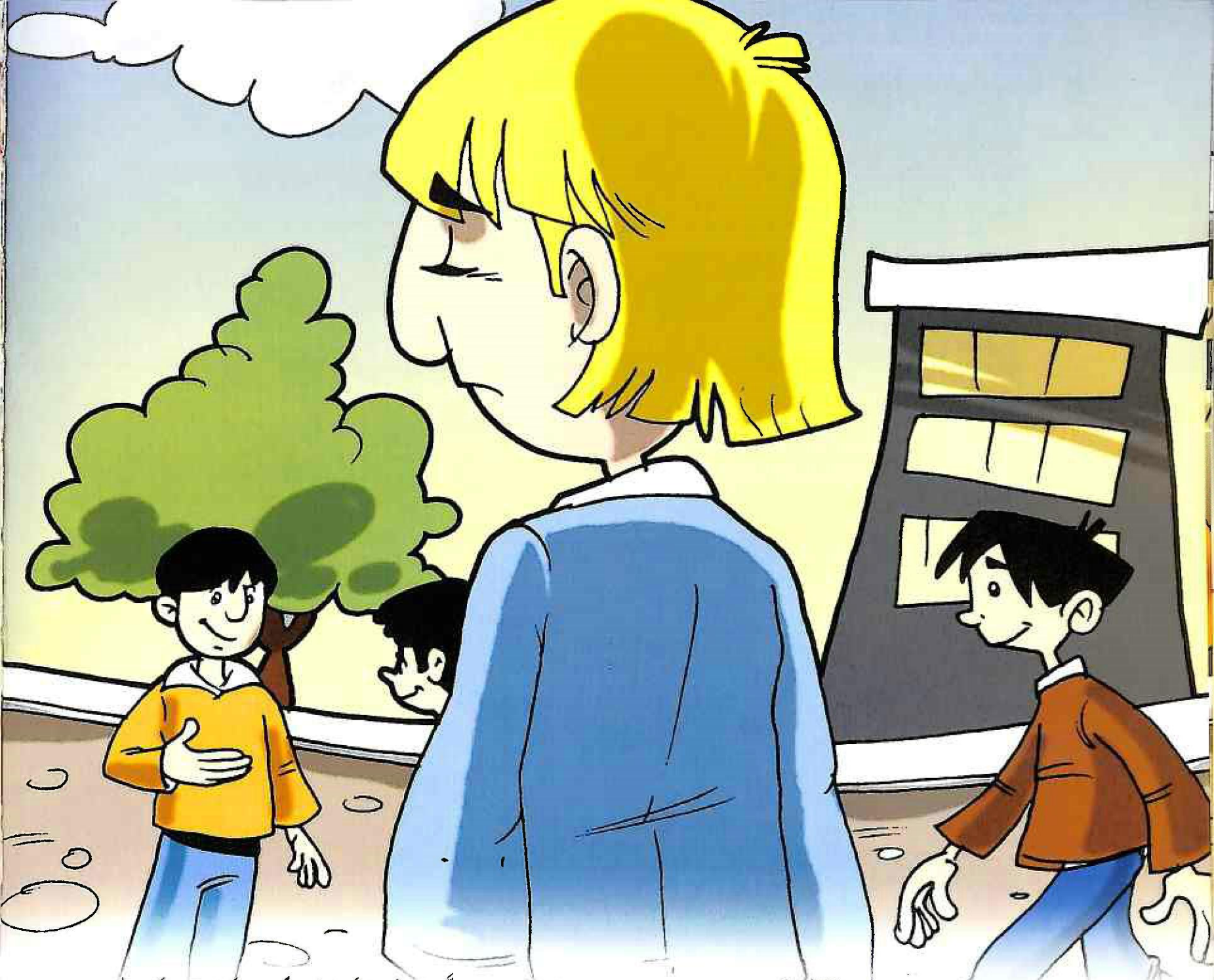

وجاء دَوْرُ سَعْد ليذكُرَ كلاماً حاسماً، فقال: جاء في الحَديْث الشَّريفَ أنَّ رَجُلاً سألَ رَسُولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أيُّ المُسْلميْنَ خَيْرٌ؟ قال: "مَنْ سَلمَ المُسْلَمُونَ منْ لسَانه وَيَده". وقالَ صلى اللّه عليه وسلم في حَديثٍ آخَرَ: "مَنْ آذى المُسْلِميْنَ في طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ".

ضربَ خالدٌ يده اليمنى باليسرى حَسْرةً، ثُمَّ قال: يا الله، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله.. إلى هَذَا الحَدِّ أنا سَيِّئٌ؟!
ربَّت فَهْدٌ على كتفه وقالَ لهُ: هل تظنُّ أنَّ إيْذَاءَ الآخَرِيْنَ أَمْرٌ بَسِيْطٌ؟
قال خالدٌ: نعمْ.. نعمْ.. كَمْ كُنْتُ مُخْطِئاً.. لكِنِّي أَحْياناً لا أَسْتَطِيْعُ أنْ أَضْبِطَ نَفْسِي، وأَقُومَ بِفِعْلٍ لا أُفَكِّرُ فِيهِ..

ضَحكَ أحمدُ من قَوْل خالد، ونَصَحَهُ بقوله: ومنْ هَنَا تَقَعُ الأَخْطَاءُ الكَبيرَةُ وَالصَّغيْرَةُ..
واسْتَدْرَكَ فَهْدٌ: أَنَسِيْتَ الذي عَلَّمَنَا إيَّاهُ مُدَرِّس الدِّين: "إذَا دعتك قُدْرَتُكَ على إيْذاءِ النَّاسِ فَتَذَكَّرْ قُدْرَةَ الخَالِقِ عليكَ". أجابَ خَالِدٌ: نَعَمَ أَذْكُرُهُ..

وهنا كان لا بُدّ أن يَتدخَّلَ عَريفُ الصَّفّ، جاسمٌ؛ ليقولَ: ومتى سَتُقَرِّرُ أَنْ تُطَبِّقَهُ.. فنحنُ جَميْعاً نُحاولُ أنْ نُطَبِّقَهُ، ولا نُؤْذي أَحَداً قَدْرما نَسْتَطيع؛ لأنَّ اكْتمالَ الدِّيْن لا يَتمُّ حتى يُحبَّ المُسْلمُ أخاه المُسْلمَ، ويَتْرُكَ إِيْذاءَهُ بِلسانِه، وبِيَدِه.. ولا يتمُّ إسْلامُه حتى يَشْغَلَ لِسَانَهُ في الأَعْمَالِ التي يكُونُ فيها نَفْعٌ.

قال خالدٌ: نَعَمْ.. نَعَمْ.. يَكْفِي.. يَكْفِي.. لقدْ قَرَّرْتُ أنْ أُطَبِّقَ الحديثَ بَدْءاً من هذهِ اللَّحْظَةِ...

ابتسمَ فَهْدٌ قائلاً: الحَمْدُ للّه..

سار أحمدُ مع خالدٍ قَليلاً، وقالَ لهُ: وماذا سَتَفْعَلُ الآنَ؟

وفي تلكَ اللَّحْظَةِ اقْتَرَبَ مَحْمُودٌ وهو مارٌّ مُصَادَفَةً في المَكَانِ، وعِنْدَما شَاهَدَ خالداً حَاوَلَ أنْ يُغَيِّرَ طَرِيْقَهُ..

لكنَّ خالداً أسرعَ بِمُناداته: مَحْمود.. مَحْمود.. لا تَذْهَبْ..

قالَ مَحْمُودٌ: ماذا تُرِيْدُ؟؟.. هل تُرِيْدُ أنْ تَضْرِبَنِي مَرَّةً ثانيةً؟؟

وحاولَ مَحْمُودٌ أنْ يَذْهَبَ بِسُرْعَةٍ..

إلا أن أحمد قال: انتظر يا مَحْمُودُ لَحْظَةً..

هَدّأَ فَهْدٌ الوَضْعَ بقوله: لا تَقْلَقْ يا مَحْمُودُ، فَنَحْنُ مَعَكَ.. لا تَقْلَقْ.

قالَ محمودٌ: أخافُ أنْ يَضْرِبَني خالدٌ.

حَزِنَ خالدٌ، وقَالَ: لا تَخَفْ.. أنا أخطأتُ بِحَقِّكَ.. تَعَالَ لِأُقَبِّلَ رَأْسَكَ، وَأَعْتَذِرَ مِنْكَ أمامَ الجَمِيعِ..

اقتربَ محمودٌ ببطء .. وقالَ: هَلْ ما أَسْمَعُهُ حَقيقيٌّ.. أكادُ لا أُصَدِّقُ نَفْسي.. لعلَّها خُدْعَةٌ؟

اقتربْ خالدٌ وقبَّل رَأسَ مَحْمُود، فاستغربَ مَحْمُود، وظهرتْ عليه آثارُ التَّعجُّب..

قالَ خالدٌ: لا تَسْتَغْرِبْ يا مَحْمُودُ.. والفَضْلُ لأصْدِقائي.. فَقَدْ نَصَحُوني وعَلَّمُوني، وقَبِلْتُ النَّصيحَةَ..

رَفَعَ محمودٌ يديه نَحْو السَّماءِ ليقولَ: حَمْداً للّه.

قالَ خالدٌ: هل تَقْبَلُ أنْ نَكُونَ بَدْءاً من اليوم أَصْدِقاءَ يا مَحْمُودُ؟!

رَدَّ مَحْمُودٌ بقوله: بكلِّ تَأْكِيد..

احْتَضَنَ خالدٌ مَحْمُوداً.. وضَحِكَ الجَمِيْعُ، وصَفَّقُوا مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ.